

كان العصر العباسي الأول من العصور الإسلامية المرموقة، فقد استقرت أحوال الإسلام، بعد أن هدأت حركة الفتوح التي مرت بها العصر الأموي، كما أرسى كل من أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور دعائم الدولة، ونتيجة لكل هذا برز في العصر العباسي جمهرة من الأدباء والفلاسفة والمؤرخين والرياضيين ورجال الفقه في الدين. تميز العصر العباسي الأول ببسط الدولة سيطرتها على كافة أراضي الخلافة الإسلامية الممتدة من الشرق إلى أقصى الغرب، كما تميز هذا العصر بزيادة الفتوحات الإسلامية، فقد شهدت الدولة العباسية توسعاً كبيراً. تمتع الخلفاء في ذلك العصر بسلطتهم الدينية والدنيوية، هم: خلفاء العصر العباسي الأول ولد سنة 100 هـ / 718 م تقريباً، بويع «أبو العباس» في «الكوفة» في شهر ربيع الأول سنة (132 هـ / 750 م) بعد مسيره من الحميمة، استطاع خلالها توطيد أركان الخلافة العباسية، والقضاء على كل مقاومة ظهرت في عهده، سنة 136 هـ، فكانت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر ويوماً. يكنى بـ«أبو جعفر»، ولد سنة 95 هـ / 714 م، بقرية الحميمة ببلاد الشام وترى وسط كبار الرجال من «بنى هاشم»، فنشأ فصيحاً عالمياً يسير الملوك والأمراء، ودرس النحو والتاريخ والأدب شعراً ونثراً وغير ذلك، كما كان كثير الأسفار والتنقل، توفي في (٦ من ذي الحجة سنة 158 هـ وهو في طريقه إلى الحج. الخليفة الثالث: محمد المهدي (158 - 169 هـ): هو محمد بن عبدالله بن محمد ولد بالحميمة سنة 126 هـ هياً والده أبو جعفر المنصور ليكون أولى بمنصب الخلافة من بعده، فنشأ على ثقافة عربية واسعة، ودراسة بفنون الحرب وأساليب الإدارة، اتسم العصر العباسي الأول في عهده بالاستقرار والتسامح والصفح، واهتم بإقرار العدل بين الناس، وجلس للنظر في مظالم الناس مستعيناً بالقضاة، وأمر بالإففاق على مرضى الجذام؛ حتى لا يختلطوا بالناس فتصيبهم العدوى، كما اهتم اهتماماً خاصاً بالحرمين الشريفين وبكسوة الكعبة. وكان بجرجان وقت موت المهدي، وكان ولد الهادي بالري، وقد اتصف الخليفة بالغيرة والشهامة والجرأة، ورفض تدخل أمه «الخيرزان» في سياسة الدولة كما كانت تفعل في السابق أثناء حكم والده الخليفة المهدي، واجه الخليفة الهادي فتن خطيرة وثورات متعددة، حاول الخليفة القضاء عليها، كما حاول الخليفة المهدي نقل ولاية العهد من أخيه الرشيد إلى ابنه جعفر، مخالفاً بذلك وصية والده في ترتيب ولاية العهد، توفي الهادي « ليلة الجمعة، في نصف ربيع الأول سنة 170 هـ وبذلك تكون مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر. الخليفة الخامس: هارون الرشيد (170 - 193 هـ): هو هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد بالري في آخر ذي الحجة سنة 145 هـ، وتولى الخلافة في الليلة التي مات فيها أخوه «الهادي» وعمره اثنان وعشرون عاماً. ويُعدُّ الرشيد أشهر خلفاء العباسيين وأبعدهم صيتاً، فقد ملأت أخباره كتب التاريخ شرقاً وغرباً، ومنحه لقب «أمير»: فكان أول من لُقِّب بذلك من الوزراء الفرس في الدولة العباسية اهتم الرشيد بإقامة العدل في الناس، ورفع الظلم عن المسجونين ظلماً، فأخرج من كان في السجن من العلويين، وسمح لهم بالعودة إلى المدينة ومنحهم الرواتب، كما أجرى الرشيد تعديلات واسعة في مناصب الدولة في كل من «مكة» و«المدينة» و«الطائف» و«الكوفة» و«خراسان» و«أرمينية» و«الموصل»، وقد حكم الرشيد البلاد ثلاثة وعشرين عاماً، بلغت فيها «الدولة العباسية» ذروة مجدها. الخليفة السادس الأمين (193 - 198 هـ): محمد هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور يلقب بالأمين، ولد بالرصافة وأمّه «زبيدة» ابنة أبو جعفر المنصور، تولى الخلافة عقب وفاة أبيه «هارون الرشيد» باعتباره ولي عهده، وكان عمره حينئذٍ ثمانية وعشرين عاماً، ودامت فترة حكمه خمس سنوات تقريباً، وأهم ما ميز عهده هو النزاع الذي قام بينه وبين أخيه المأمون، كان هذا النزاع استمراراً للصراع القائم بين العرب والعجم داخل الدولة العباسية، وكان يمثل الحزب العربي الأمين ووزيره الفضل بن الربيع، أما الحزب الفارسي فكان يتمثل بالمأمون ووزيره الفضل بن سهل ومر النزاع بين الأمين والمأمون على مرحلتين، المرحلة الأولى كانت دبلوماسية سلمية انتهت سنة 195 هجرية، والمرحلة الثانية كانت مرحلة حرب انتهت بمقتل الأمين سنة 198 هجرية. الخليفة السابع: المأمون (198 - 218 هـ): هو عبدالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، ولد عام 170 هـ 786 وتوفي غازياً في 19 رجب عام 218 هـ بطرسوس، شهد العصر العباسي الأول في عهده ازدهاراً بالنهضة العلمية والفكرية، وذلك لأنه شارك فيها بنفسه. توفي هارون الرشيد في خراسان وأخذت البيعة لابنه الأمين وفقاً لوصية والده التي نصت أيضاً أن يخلف المأمون أخاه الأمين، إلا أن الخليفة الجديد سريماً ما خلع أخاه من ولاية العهد، وكان المأمون آنذاك في خراسان، فلما علم بأن أخاه قد خلعه عن ولاية العهد أخذ البيعة من أهالي خراسان وتوجه بجيش لمحاربة أخيه، وقد استمرت الحروب بينهما أربع سنوات، ظافراً بالخلافة الخليفة الثامن: المعتصم (218 - 227 هـ): أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور ثامن الخلفاء العباسيين، ولد سنة 179 هجري وتوفي بمدينة سامراء في 18 من ربيع الأول سنة 227 هجرية، وكان المأمون يميل إليه لشجاعته فولّاه عهده، في 19 من رجب سنة 218 هـ، وما ميّز عهد المعتصم هو استعانتة بالجنود الأتراك وذلك للحد من المنافسة الشديدة

بين العرب والفرس في الجيش والحكومة. يكنى بأبي جعفر، كانوا يسمونه المأمون الصغير لأدبه وفضله، وكان المأمون يجلسه وأبوه المعتصم واقف، فأني أرضي أدبه، ولا تعترض عليه في شيء يفعله. كما عرف عنه اهتمامه بالآداب والأنساب والموسيقى، عُرف بالفصاحة وتنظيم الشعر، وفي عهده فتحت جزيرة صقلية، فتحها الفضل بن جعفر الهمداني سنة 228هـ/843، انتهج الوثائق بالله نهج والده في سياسية الاعتماد على الأتراك، وزاد عددهم ونفوذهم في عصره، فاستخدمهم للقضاء على الفتن التي ظهرت في عهده. ويشمل أ - الخلافة: أقام العباسيون دولتهم سنة (132هـ) وتولى أول خلفائهم «أبو العباس عبدالله بن محمد» السلطة بناءً على وصية أخيه «إبراهيم الإمام» بعد وقوعه في قبضة الأمويين، وقد حكم «أبو العباس» أربع سنوات، «عيسى بن موسى»، وكتب العهد بهذا وصره في ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتم أهل بيته وسلمه إلى «عيسى بن موسى»، بدأ الحكم وراثياً في عهد «الدولة العباسية» منذ اللحظة الأولى، واقتصر على أهل البيت العباسي، كما أن أكثر الخلفاء كان يوصى بولاية العهد إلى أكثر من شخص؛ مما أدى إلى صراعات ساعدت على تصدع «الدولة العباسية»، وحين تولى «أبو جعفر المنصور» الخلافة واجه اعتراضاً من عمه «عبدالله بن علي» الذي رفض مبايعته، ودعا لنفسه بالخلافة مدعياً أنه ولي عهد «أبي العباس»، مما دعا «المنصور» إلى توجيه جيش له بقيادة «أبي مسلم الخراساني» تمكن من القبض عليه والقضاء على دعوته، وقد نقل «المنصور» ولاية العهد من ابن أخيه «عيسى بن موسى» إلى ابنه «محمد»، واستمر في منصبه حتى توفي؛ ولم يمكث سوى سنة واحدة في الحكم؛ حيث تولى من بعده أخوه «هارون الرشيد»، ومنذ عهد «الرشيد» أصبح الصراع السياسي على السلطة إحدى السمات المميزة للعصر العباسي الأول، وكان الصراع بين «الأمين» و «المأمون» من الأمثلة المعبرة عن هذه السمة، وقد انتهى بقتل «الأمين» وتولية «المأمون» الخلافة. ب- الوزارة: تُعدُّ الوزارة المنصب الثاني بعد الخلافة في «الدولة العباسية» وقد قسّم فقهاء المسلمين الوزارة إلى نوعين: وزارة التفويض: حيث يفوض الخليفة الوزير في تدبير أمور الدولة برأيه واجتهاده، فتكون له السلطة المطلقة في الحكم والتصرف في شئون الدولة. وزارة التنفيذ: حيث يكون الوزير وسيطاً بين الخليفة والرعية والولاة، ومجرد منفذ لأوامر الخليفة، وقد أحدث العباسيون نظام الوزارة في بداية دولتهم متأثرين في ذلك بالنظم الفارسية، وقد حصر «أبو جعفر المنصور» مهمة الوزير في التنفيذ وإبداء الرأي والنصح، ولم يكن له وزير دائم، ومن وزرائه: «الربيع بن يونس» الذي اشتهر باللباقة والذكاء وحسن التدبير والسياسة. وقد ظهرت شخصية الوزراء إلى حد كبير في عهد الخليفة «المهدي»، لما ساد الدولة من هدوء نسبي، ومن هؤلاء الوزراء الأقياء «يعقوب بن داود»، و «المأمون» لاعتماد الأول على البرامكة، والثاني على «بنى سهل»، فمُنِحَ «يحيى البرمكي» وزير «الرشيد» جعلت نفوذهما يمتد إلى جميع مرافق الدولة، ولكن سرعان ما تم التخلص منهما. ج- الكتابة: كانت طبقة الكُتَّاب ذات أهمية كبيرة في «الدولة العباسية»، وكان الكاتب ذا علم واسع وثقافة عريضة؛ لأنه يقوم بتحرير الرسائل الرسمية والسياسية داخل الدولة وخارجها، كما يتولَّى نشر القرارات والبلاغات والمراسيم بين الناس، ويجلس على منصة القضاء بجوار الخليفة لينظر في الدعاوى والشكاوى ثم يختتمها بخاتم الخليفة. ومن أشهر الكُتَّاب في العصر العباسي الأول «يحيى بن خالد بن برمك» في عهد «الرشيد»، و «الفضل» و «الحسن» ابنا «سهل»، و «أحمد بن يوسف» في عهد «المأمون»، و «محمد بن عبدالملك الزيات» و «الحسن بن وهب»، و «أحمد بن المدبر» في عهد «المعتصم» و «الواثق». د - الحجابة: وهي وظيفة تقوم بمساعدة الحكام في تنظيم الصلة بينهم وبين الرعية، فالحاجب واسطة بين الناس والخليفة، يدرس حوائجهم، ويأذن لهم بالدخول بين يدي الخليفة أو يرفض ذلك إذا كانت الأسباب غير مقنعة؛ وذلك حفاظاً على هيبة الخلافة وتنظيماً لعرض المسائل حسب أهميتها على الحاكم الأعلى للبلاد. وقد اقتدى العباسيون بالأمويين في اتخاذ الحُجَّاب، وأسرفوا في منع الناس من المقابلات الرسمية، ولعل هذا هو السبب المباشر في نشأة ما أسماه «ابن خلدون» «الحجاب الثاني»، فكان بين الناس والخليفة حاجزان عبارة عن دارين، أحدهما يُسمَّى «دار الخاصة» والآخر «دار العامة»، وكان الخليفة يقابل كل طائفة حسب حالتها وظروفها في إحدى هاتين الدارين تبعاً لإرادة الحُجَّاب على أبوابها. هـ - ولاية الأقاليم: المقصود بالأقاليم: المناطق التي تتكون منها الدولة. وقد كان النظام الإداري في «الدولة العباسية» نظاماً مركزياً؛ وقد قسم العباسيون الولاية على الأقاليم إلى قسمين، وخصوصاً في عهد «الرشيد»، الأول: الولاية الكبرى وهي التي تكون لأحد أبناء الخليفة أو شخص مقرب من الخليفة؛ أو من أحد تلك الأقاليم بعد الرجوع إلى الخليفة، ويرسل إليها ما يشاء من الولاة. الثاني: الولاية الكاملة: حيث يتمتع الوالي ببعض السلطات التي توسع دائرة نفوذه، كبقية المؤسسات الإدارية، نتيجة لاحتياج المسلمين إليها، وقد جعل «ابن خلدون» وجود الديوان من الأمور اللازمة للملك. وللديوان أهمية كبرى فيما يتعلق بأموال الدولة وحقوقها وحصر جنودها ومرتباتهم، ويرجع الفضل في تنظيم الدواوين في العصر العباسي إلى «خالد بن برمك» وقد اهتم الخلفاء العباسيون بالدواوين؛ فكثر اختصاصاتها وتنوعت بسبب التعاون الوثيق بين

العباسيين والفرس، فقد أخذ العباسيون الخبرة الفارسية في مجال الإدارة، كما احتفظوا ببعض تنظيمات «الدولة الأموية»، خصوصاً في الدواوين والدوائر الرسمية، وديوان الأزمّة (المحاسبة) وديوان المظالم، وغيرها. ويقوم على المحافظة على حقوق الرعية وإقرار العدل والإنصاف بين جميع الطبقات، وحماية الأخلاق العامة، مستمداً أحكامه من الكتاب والسنة، ومنها: أن يكون رجلاً قوياً عاقلاً حراً مسلماً عادلاً، ويتمتع بالسلامة في السمع والبصر، وأن يكون عالماً بأحكام الشريعة، وقد حظي القضاة في العصر العباسي الأول بالتبجيل والاحترام، وكان تعيينهم وعزلهم يتم بأمر الخليفة، وأول من فعل ذلك الخليفة «المنصور»، فقد عين قضاة البلاد بأمره سنة 136هـ / 753م. وقد استقرت المذاهب الفقهية في عهد «الدولة العباسية»، وتحدت مهام القضاة وكيفية الإجراء القضائي، وتوحد القانون وأصبحت جلسات القاضي علنية في المسجد وخصوصاً في عهد «المأمون» كما اهتم خلفاء العباسيين بالثبوت من الأحكام، فعينوا جماعة من المُزكّين، وظيفتهم تتبع أحوال الشهود، فإذا طعن الخصم في شهادة أحد الشهود سئل عنه المزكى، كما اهتموا بأحوال القضاة المادية حتى يعيشوا في يسر ورخاء، وظهر منصب «قاضي القضاة»، وكان يقيم في عاصمة الدولة، وأول من لقب بقاضي القضاة «أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم»، صاحب كتاب «الخراج»، في عهد «الرشيد» وتولى القضاء إلى أن مات. ثانياً - الأوضاع الاقتصادية والعمرانية أدرك الخلفاء العباسيون أهمية الاقتصاد وتنمية الموارد المالية لمواجهة النفقات المتعددة للدولة، واتخذ «المنصور» عدة خطوات لزيادة موارد الدولة، فاستحدث نظام المصادرات للاستيلاء على الأموال لمواجهة أعباء الثورات والحركات التي واجهها، وفي عهد «الرشيد» ازدهرت أحوال الدولة الاقتصادية، وارتفع مستوى المعيشة، والجزية، وأخماس المعدن، والرسوم على التجارة الخارجية، وغيرها وقد أسهمت تلك الموارد في سدّ النفقات في مجال النشاط العسكري والأمني، ومدينة «سامراء» - ثالثاً - الحياة الفكرية شهد العصر العباسي الأول نهضة فكرية عظيمة، والنحو، واللغة والبيان والأدب. وهي العلوم العقلية: وتشمل: الفلسفة والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والطب والكيمياء والتاريخ والجغرافيا. و «أبو نواس»، و «أبو العتاهية» المتوفى و «مسلم بن الوليد»، وقد تطور النثر في العصر العباسي الأول بعد دخول كثير من الثقافات اليونانية والفارسية والهندية التي امتزجت به، وأهم فنون النثر في ذلك الوقت الخطابة والوعظ، والمناظرات، والرسائل الديوانية - العهود والوصايا والتوقيعات - والرسائل الإخوانية والأدبية، ومن أعلام الكتاب في ذلك العصر: «ابن المقفع»، و «سهل بن هارون» المتوفى، وأنشأ «بيت الحكمة»، والمترجمين والنساخ، ومن أشهرهم: «سهل بن هارون»، و «الحسين بن سهل»، و بجانب اهتمام الخلفاء بحركة الترجمة والنقل، اهتم ذوو اليسار (الأغنياء) بتشجيع العلم والإنفاق على الترجمة إلى اللغة العربية، ومنهم «محمد» و «أحمد» و «الحسن» أبناء «موسى بن شاكر» الذين أنفقوا أموالاً ضخمة في ترجمة كتب الرياضيات، وكانت لهم آثار قيمة في الهندسة والموسيقى والنجوم، وقد أرسلوا «حنين بن إسحاق» إلى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات، كما نشطت كتابة التاريخ في العصر العباسي الأول، وأشهر من اشتغل بذلك العلم: «محمد بن»، «الحسين بن زبالة»، و «أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي»، و «سيف بن عمر التميمي».